المنقذ من الضلال

لأبى حامد الغزالى

طبعة منقحة ومحققة

مركز الكتاب للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم



مركز الكتاب للنشر

مصر الجديدة : ٢١ ش الخليفة المأمون روكسى ت ٢٦١٠١٧
مدينة نصر : ٣ ش الوادى ـ الحى السابع ت ٢٦٢٦٨٤١

رقم الإيداع
٩١/٩٧٣٨

كلمـــة الناشـــر

لا يخفى على القارئ : مَنْ هو حجة الإسلام الغزالى ؟ وسوف أكتفى بتقريظ أهل زمانه — من العلماء — له ، أما كتابه هذا الذى بين يديك أيها القارئ العزيز ، فهو كتاب « المنقذ من الضلال » فقد وضع هذا العالم الفَذّ أسس منهج التصوف لكل مسلم ومسلمة .

ففى تصفحك لهذا الكتاب تراه يتصدى للرَّدِّ — بالعقل والنَّقْل — على أربع من الفرق هم على الترتيب : فرقة المتكلمين — فرقة الباطنية — فرقة الفلاسفة — فرقة الصوفية،ولا أحرمك أيها القارئ متعة الخيال مع هذا الفيلسوف وهذا الكتاب .

القاهرة فى ١٤١٢هـ/١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة

حجة الإسلام الغزالى رحمه الله

هو حجة الإسلام وزين الأنام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في حانوته ، فلما مرض بالمرض الذي مات فيه ، أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق لى صوفيّ صالح : فعلمهما الخط وأدّبهما ، ثم لما نفد ما ترك أبوهما . وتعذر عليهما القوت استشارا المؤدب فى ذلك ، فقال : أرى لكمال أن تلتجئا إلى المدرسة . قال الغزالي : فصرنا إلى المدرسة في طلب الفقه لتحصيل القوت ، فكنا نأخذ الجراية ونقتات به . ثم تفرق الغزالي عن أخيه ، فارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي بجرجان ، ثم إلى إمام الحرمين بنيسابور ، فلازمه حتى صار أنظر أهل زمانه ، وكان الإمام يحبه باطناً لما يصدر عنه من سرعة العبارة وقوة الطبع ، وابتدأ بالتصانيف في حياة الإمام ، فلما مات الإمام رحمه الله ، خرج الغزالي إلى العسكر ، وحضر مجلس نظام الملك ، وكان محط رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوقع للغزالي أمور تقتضي علو شأنه من ملاقاة الأئمة ، ومجاراة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ، ومناطحة الكبار ، فأقبل النظام عليه وعظّمه وسلّم إليه أموراً ، فعظمت منزلته ، وانتشر صيته في الآفاق .

وندب للتدريس بنظامية بغداد ، فنفذت كلمته وعظمت حشمته ، حتى علت على حشمة الأمراء والوزراء والكبار ، وضرب به المثل وشُدَّت إليه الرحال ، ثمَّ إنه ترك جميع ما كان فيه سنة ٤٨٨ هـ ، وأقبل على العبادة والسياحة ، فخرج إلى الحجاز فحج ورجع إلى دمشق ، وأقام بها عشر سنين بمنارة الجامع ، وصنّف بها كتباً قيل منها : « الإحياء » ، ثم توجه إلى القدس والإسكندرية ، ثم عاد إلى وطنه طوس ،

فأقبل على التصنيف والعبادة والملازمة للتلاوة ونشر العلم . ثم إن الوزير فخر الدين بن نظام الملك ، حضر إليه ودعاه إلى نظامية نيسابور وألح عليه ، فأجابه وأقام بها مدة ، ثم تركها ، وعاد إلى وطنه على ما كان عليه ، وبنى إلى جواره خانقاه للصوفية ، ومدرسة للمشتغلين بالعلم ، ولازم الانقطاع ، ووزّع أوقاته على وظائف الخير بحيث لا يمضي عليه لحظة منها إلا هو في طاعة ، من تلاوة القرآن والتدريس والنظر في الأحاديث خصوصاً البخاري ، وإدامة القيام والتهجد ، وملازمة أهل القلوب .

قال الإسنائي في ترجمة الغزالي ، وقد أفرده بباب في حرف الغين المعجمة : « كان التقوى دأبه وديدنه ، حتى انتقل إلى رحمة الله ؛ وهو قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود ، وروح خلاصة أهل الإيمان ، والطريق الموصلة إلى رضاء الرحمن ، يتقرب به إلى الله كل صديق ؛ ولا يبغضه إلّا ملحد أو زنديق ، قد انفرد في ذلك العصر عن أعلام الزمان ، كما انفرد بهذا الباب فلمَ يترجم فيه معه لإنسان » . هذا لفظ الإسنائي . وكانت وفاته بطوس صبيحة يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة ؛ سنة خمس وخمسمائة ، وعمره خمس وخمسون سنة .

ويقول الذهبى عنه : فيلسوف ، متصوف ، له نحو مائتي مصنف ، منها : « إحياء علوم الدين » ، و « تهافت الفلاسفة » ، و « محك النظر » ، و « مقاصد الفلاسفة » ، و« الاقتصاد في الاعتقاد » ، و« المنقذ من الضلال » ، و« فضائح الباطنية » ، و« التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ، و « عقيدة أهل السنّة » .

أما أخوه : هو أحمد بن محمد ، كان من أئمة العلم والورع ، ولم يوجد مثله في الوعظ . غلب عليه علم التصوف والخلوة ، فتوجه إلى الطاعة ، وكان لا يفتر منها ليلاً ، حتى صار ذا كرامات ظاهرة ، وشيخاً للمتصوفة . توفي بقزوين سنة عشرين وخمسمائة .

ويقول عنه ابن هداية الله : هو أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد ، أبو الفتوح ، مجد الدين الطوسي الغزالي : فقيه شافعي ، مال إلى الوعظ فغلب عليه . درّس بالنظامية نيابة عن أخيه أبي حامد لمّا ترك التدريس زهادة فيه . له « لباب الإحياء » اختصر فيه كتاب « إحياء علوم الدين » لأخيه ، و « الذخيرة في علم البصيرة » تصوف .

وكتاب « المنقذ من الضلال » من الكتب الهامة فى التصوف ، فقد وضع أسس منهج التصوف لكل مسلم ومسلمة ، وقد بين لنا الغزالي مفاهيم جديدة فى فهم الإسلام ، وقد اعتمدت فى إصدار هذا الكتاب على عدة طبعات قديمة ، وخاصة طبعة القاهرة ١٩٥٢ م ، والجمالية عام ١٣٢٩ هـ ، مع وضع إضافات جديدة ، إلى جانب دراسة عن الإمام الغزالي وأسرته ، وقد طرق موضوع التصوف أساتذة وعلماء أجلاء منهم المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، والمرحوم الأستاذ (فضيلة الشيخ) الدكتور عبد الحليم محمود ، والأستاذ عبد الحليم الجندى وغيرهم .

وأسأل الله العون والمغفرة والرحمة فى خدمة الإسلام والمسلمين

القاهرة ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بحمده يفتتح كل رسالة ومقالة ، والصلاة على سيدنا [1] محمد المصطفى صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله الطاهرين [2] وأصحابه الهادين من الضلالة .

(أما بعد) فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى بقاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما احتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام ، وبما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طريق التصوف ، وما تجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة ، فانتدبت لإجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه .

اعلموا أحسن الله إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ، أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [3]، وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق حيث قال : « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ،

---

(١) لم ترد فى المطبوع .

(٢) سقطت من الناسخ .

(٣) المؤمنون : من الآية ٥٣ .

الناجية منهم واحدة »[1]. فقد كاد ما وعد أن يكون . ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم [2] كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع . لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريًّا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، و لافلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني ، من أول أمري ، وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى [3] وضعها في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد بسن الصبا : إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان الإسلام لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »[4]. فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات وفي تميز الحق منها عن الباطل اختلافات . فقلت في نفسي : أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور فلابد من طلب حقيقة العلم ما هي ، فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف منه المعلوم آنكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار

---

(١) مفتاح كنوز السنة ٦٢ .

(٢) وردت فى المطبوع أتقحم .

(٣) سقطت من الناسخ .

(٤) انظر مفتاح كنوز السنة ٥٣٥ .

بطلانه ، مثلا من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وإمكانا ، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، وقال القائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل أنني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه على هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني .

القول الأول في مداخل السفسطة وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً عن علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات . فقلت : الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليديات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ، فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع الشك فيها ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر ، وهي أنك تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم يكن له حالة وقوف . وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكام فيكذبه [1]حاكم العقل ، ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته ، فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً ، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً واجباً محالاً (فقالت) المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك حاكم العقل حاكم آخر ، إذا تجلى يكذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته .

---

(١) وردت في الأصل (ويكذبه) والصواب في المتن .

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها إثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ، فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة أخرى يكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها ، فإذا أوردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم ؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم أنهم إذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن أحوالهم وحواسهم رأوا أحوالاً لا توافق هذه المعقولات ، أو لعل تلك الحالة هي الموت إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا [1]» . فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [2]فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، فحاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يمكن دفعه إلا بدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب دليل ، فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال حتى شفى الله تعالى ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن كل ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرح ومعناه في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [3]قال : « نور يقذفه الله في القلب فيشرح

---

(١) انظر : مفتاح كنوز السنة ٥١٢ .

(٢) سورة ق : الآية ٢٢ .

(٣) الأنعام : من الآية ١٢٥ .

به الصدر » فقيل : وما علامته ؟ قال : « التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه : « إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره » فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ويجب الترصد له »[1]. كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها »[2]، والمقصود من هذه الحكاية أن يعمل كال الجد في الطلب حتى ينتهي إلى طلب مالا يطلب ، فإن الأوليات ليست مطلوبة ، فإنها حاضرة ، والحاضر إذا طلب فقد واختفى ، ومن طلب مالا يطلب فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب .

---

(١) مفتاح كنوز السنة ٣١٧ .
(٢) مفتاح كنوز السنة ٥٠٥ .

القول فى أصناف الطالبين

ولما شفاني [1]الله تعالى [من] [2]هذا المرض بفضله وسعة جوده انحصرت أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق :

١ ــ (المتكلمون) وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ ــ (والباطنية) وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون [3] بالاقتباس عن الإمام المعصوم .

٣ ــ (والفلاسفة) : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ ــ (والصوفية) وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة ، فقلت في نفسي : الحق لا يعدو ، وهذه الأصناف الأربعة فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ؛ فإن شذ الحق عنهم فلا يبقي في درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ، إذ [من] [4]شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شعب لا يرأب ، وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ويستأنف له [5]صنعة أخرى مستجدة . فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئاً بعلم الكلام ، ومثنياً بطرق [6]الفلسفة ، ومثلثاً بتعليمات الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية .

---

(١) وردت فى الأصل كفانى ، والصواب فى المتن .
(٢) إضافة من عندنا ليستقيم المعنى .
(٣) وردت فى الأصل المخصوص .
(٤) إضافة من عندنا .
(٥) وردت فى الأصل لها .
(٦) وردت فى الأصل بطريق .

القول فى بيان مقصود علم الكلام وحاصلة

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعلقته ، وطالعت كتب المتقدمين [1] المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصودي ، وإنما مقصوده حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله سبحانه إلى عباده على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فأنشأ الله سبحانه طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة المأثورة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله ، ولقد قام طائفة منهم بما أيدهم الله تعالى فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغير في وجه ماأحدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم آضطرهم إلى تسليمها إما التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئًا أصلاً ، فلم يكن الكلام في حقى كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً . نعم لما نشأت صنعة الكلام وكثرة الخوض فيه وطالت المدة ، تشوف المتكلمون إلى مجاوزة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، خاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، ولكن لمَّا لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه غاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو ظلمات الحيرة بالكلية في اختلافات الخلق ، ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيري ، ولست

---

(١) إضافة من المطبوع .

أشك في حصول ذلك لطائفة ولكن حصولاً مشوبا بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات ، والغرض الآن حكاية حالي لا الإنكار على من استشفى به ؛ فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر .

القول فى أحاصيل الفلسفة

وما يذم منها وما لايذم ، وما يكفر به [1] قائله ومالا يكفر ، ومايبدع [2] فيه ومالا يبدع ، وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ، وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف والنبهرج من جملة كلامهم .

ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، فإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقًّا ، ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف همته وعنايته إلى ذلك ، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامي فضلاً عمن يدعي حقائق العلوم .

فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية ، فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ومعلم ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التدريس والتصنيف في العلوم الشرعية وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد ، فأطلعني الله سبحانه وتعالى [3] بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل

---

(١) وردت فى الأصل فيه .

(٢) وردت فى الأصل يبتدع .

(٣) سقطت من الناسخ .

من سنتين . ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأتفقد غوائله وأغواره حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل ، اطلاعاً لم أشك فيه . فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم فإني رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

فصل فى أصنافهم وشمول سمة الكفر لكافتهم

اعلم أنهم على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : الدهريون والطبيعيون والإلهيون .

(الصنف الأول : الدهريون) وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع ، ولم يزل الحيوان من نطفة والنطفة من حيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبداً ، وهؤلاء هم الزنادقة .

(الصنف الثاني : الطبيعيون) وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام ، وهؤلاء أيضاً زنادقة لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله تعالى وبصفاته .

(الصنف الثالث : الإلهيون) وهم المتأخرون ، ومنهم مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون هو أستاذ إرسطاطاليس ، وإرسطاطاليس هو الذى رتب لهم المنطق ، وهذب العلوم ، وخمر لهم مالم يكن مخمراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجًّا

من علومهم ، وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ (١) بتقاتلهم ، ثم رد إرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلٰهيين ردًّا لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استقى أيضاً من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها ، فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الإسلاميين ، كابن سينا والفارابي وأمثالهم ، على أنه لم يقم بنقل علم إرسطاطاليس أحد من المتفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ومالا يفهم كيف يرد أو يقبل ، ومجموع ما صح عندنا من فلسفة إرسطاطاليس بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر في ثلاثة أقسام : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به ، وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلنفصله .

(١) سورة الاحزاب من الآية ٢٥ .

فصل فى أقسام علومهم

اعلم أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذى نطلبه ستة أقسام : رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية وسياسية وخلقية .

[**أما**] [1] **الرياضية** : فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئات العلم ، وليس يتعلق منها شيء بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هى أمور برهانية لا سبيل إلى إنكارها بعد فهمها ومعرفتها ، وقد تولدت منها آفتان : (أحدهما) أن من ينظر فيها فيتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة ، ويحسب أن جميع علومهم فى الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان حقًّا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ، فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم فيستدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين ، وكم رأيت من ضل عن الحق بهذا القدر ، ولا مستند له سواه فإذا قيل له : الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً فى كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه والكلام حاذقاً في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صنعة أهل بلغوا فيها رتبة البلاغة والسبق ، وإن كان الحق والجهل قد يلزمهم في غيرها ، وكلام الأوائل فى الرياضيات برهاني وفي الإلهيات تخميني لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه ، فهذا إذا قرر على هذا الوجه الذى ألحد بالتقليد لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشهوة البطالة وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها ، فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض فى تلك العلوم ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ولكن لما كانت من مبادىء علومهم سرى إليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيه إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى . (الآفة الثانية) نشأت من صديق للإسلام جاهل ظن أن الدين ينبغى أن

(١) إضافة من المطبوع .

ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم فى الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سَمْع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك فى برهانه ؛ لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع فازداد للفلسفة حبًّا وللإسلام بغضاً ، ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، فليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ؛ فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله وإلى الصلاة » [1]. ليس فى هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف لمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلتهما على وجه مخصوص [وأما] قوله لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له ؛ فليست توجد هذه الزيادة فى الصحاح أصلا فهذا حكم الرياضيات وآفتها .

(**وأما المنطقيات**) : فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتا ، بل هو النظر فى طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبها ، وأن العلم إما تصور ، وسبيل معرفته الحد ، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان ، وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر ، بل هو من جنس ماذكره المتكلمون وأهل النظر فى الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات والتشعيبات ومثال كلامهم فيه قولهم : إذا ثبت أن كل (أ) (ب) لزم أن بعض (ب) (أ) أى : إذا ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان . ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية ، وأى تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر ، وإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد فى عقل المنكر ، بل فى دينه الذى يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار . نعم لهم نوع من الظلم فى هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطًا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل

(١) مفتاح كنوز السنة ٢٥٧ .

تساهلوا غاية التساهل ، وربما ينظر فى المنطق أيضا من يستحسنه ، ويراه واضحًا فيظن أن ماينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، ويستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية ، فهذه الآفة أيضًا متطرقة إليه .

(**وأما علم الطبيعيات**) فهو بحث عن أجسام العالم : السموات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة كالماء والهواء والتراب والنار ، ومن الأجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وماتحتها ، وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها ، وذلك يضاهى بحث الطبيب عن جسم الإنسان وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزجها ، وكما ليس من شروط الدين إنكار علم الطب أيضاً فليس من شروطه أيضاً إنكار ذلك العلم إلا فى مسائل معينة ذكرناها فى تهافت الفلاسفة ، وما عداها مما تجب المخالفة فيها فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها ، وأصل جملتها أن يعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى لاتعمل بنفسها ، بل هى مستعملة من جهة فاطرها : فالشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، لافعل لشىء منها بذاته عن ذاته .

(**وأما الإلٓهيات**) ففيها أكثر أغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ماشرطوه فى المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ، ولقد قرب إرسطاطاليس مذهبه فيها من مذاهب الإسلاميين على مانقله الفارابى وابن سينا ، ولكن مجموع ماغلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر ، ولإبطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب التهافت . (أما) المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة الإسلاميين ، وذلك فى قولهم : إن الأجساد لاتحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة ، والعقوبات روحانية لاجسمانية ، ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ولكن كذبوا فى إنكار الجثمانية وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به . ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات وهو أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . ومنها قولهم بقدم العالم وأزليته فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شىء من هذه المسائل . (وأما) ما وراء ذلك من نفهيم الصفات وقولهم : إنه عام بالذات لا بعلم زائد على الذات وما يجرى مجراه

فمذهبهم فيه قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك ، وقد ذكرنا فى كتاب « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يتبين فيه فساد رأى من يتسارع إلى التكفير فى كل ما يخالف مذهبه .

(**وأما السياسيات**) فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأولياء .

(**وأما الخلقية**) : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم ، ولقد كان فى عصرهم بل فى كل عصر جماعة من المتألهين لا يخلى الله تعالى العالم منهم ؛ فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد فى الخبر حيث قال صلى الله عليه وسلم : « بهم تمطرون وبهم ترزقون » ومنهم كان أصحاب الكهف ، وكانوا فى سالف الأزمنة كما نطق به القرآن ، فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان : آفة فى حق القابل ، وآفة فى حق الراد .

[أما] آفته فى حق من رده فعظيمة ، إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذ كان مدونًا فى كتبهم ممزوجًا بباطلهم ينبغى أن يهجر ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ؛ لأنهم إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم سبق إلى عقلهم الضعيف أنه باطل لأن قائله مبطل ، كالذى يسمع من النصرانى قول : لا إلٰه إلا الله عيسى رسول الله ، فينكره ويقول . هذا كلام النصارى ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصرانى كافر باعتبار هذا القول أو باعتبار إنكاره نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره فلا ينبغى أن يخالف فى غير ما هو كافر به مما هو حق فى نفسه ، وإن كان أيضاً حقًّا عنده ، وهذه عادة ضعيفى العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق ، والعاقل يقتدى بسيد العقلاء على المرتضى رضى

الله عنه حيث قال : لاتعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله . فالعاقل يعرف الحق ، ثم ينظر فى نفس القول ؛ فإن كان حقًّا قبله ، سواء كان قائلة مبطلاً أو محقًّا بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل كلام أهل الضلال عالماً بأن معدن الذهب الرغام ، ولا بأس على الصراف إن أدخل يده فى كيس القلاب وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والنبهرج مهما كان واثقًا ببصيرته ، فإنما يزجر عن معاملة القلاب القروى دون الصيرفى البصير ، ويمنع من ساحل البحر الأخرق دون السباح الحاذق ، ويصد عن مس الحية الصبى دون المعزم البارع ، ولعمرى لما غلب على أكثر الخلق البارع ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة وكمال العقل فى تمييز الحق عن الباطل والهدى عن الضلال وجب حسم الباب فى زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ماأمكن إذ لايسلمون عن الآفة الثانية التى سنذكرها أصلا وإن سلموا من هذه الآفة التى ذكرناها .

(ولقد) اعترض على بعض الكلمات المثبوتة فى تصانيفنا فى أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم ، وزعم أن تلك الكلمات من كلمات الأوائل ، مع أن بعضها من مولدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد فى كتب الشريعة ، وأكثرها موجود معناها فى كتب الصوفية ، وهب أنها لم توجد إلا فى كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً فى نفسه مؤيدًا بالرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلا ينبغى أن يهجر وينكر ، فلو فتحنا هذا الباب وتطرقنا إلى أن يهجر كل حق سبق إليه خاطر كل مبطل ؛ للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، وللزمنا أن نهجر جملة من آيات القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وحكايات السلف وكلمات الحكماء والصوفية ؛ لأن صاحب كتاب إخوان الصفا أوردها فى كتابه مستشهدًا بها ، ومستدرجًا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله .

ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياها كتبهم ، وأقل درجات العالم أن يتميز عن العامى الغمر ، فلا يعاف العسل وإن وجده فى محجمة الحجام ، وتحقق أن المحجمة لاتغير ذات العسل ، وأن نفرة الطبع مبنية على جهل عامى منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم

مستقذر لكونه فى المحجمة ، ولا يدرى أنه مستقذر لصفة فى ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة فى العسل فكونه فى ظرفه لايكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغى أن توجب له الاستقذار ، وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فى اعتقادهم قبلوه ، وإن كان باطلاً ، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقًّا ، فبهذا يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ، هذه آفة الرد .

(الآفة الثانية : آفة القبول) فإن من نظر فى كتبهم كإخوان الصفا وغيره فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية ربما استحسنها وقبلها وحسن اعتقاده فيها فتسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به بحسن ظن حصل مما رآه واستحسنه ، وذلك نوع استدراج إلى الباطل ، ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الخطر والغرور ، وكما يجب صون من لايحسن السباحة عن مزالق الشطوط يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب ، وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات ، وكما يجب على المعزم أن لايمس الحية بين يدى ولده الطفل إذا علم أنه سيقتدى به ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذره منه ، بأن يحذر هو فى نفسه بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله ، وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسم فاستخرج منها الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج إليه ، وكذلك الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده فى كيس القلاب وأخرج منه الإبريز الخالص ، وأطرح الزيف والنبرهج فليس له أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج إليه ، وكذلك العالم ، وكما أن المحتاج إلى الترياق إذا اشمأزت نفسه عنه حيث علم أنه مستخرج من الحية التى هى مركز السم وجب تعريفه ، والفقير الذى يضطر إلى المال إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض ، هو سبب حرمانه من الفائدة التى هى مطلبه ، ويحتم تعريفه بأن قرب الجوار بين الزيف والجيد لايجعل الجيد زيفًا كما لايجعل الزيف جيداً ، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل لايجعل الحق باطلاً كما لا يجعل الباطل حقًّا ، فهذا مقدار ماأردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها .

القول فى مذهب التعليم وغائلته

ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف مايزيف منه ، علمت أن ذلك أيضًا غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات ، وكان قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحديهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق عَنَّ لى أن أبحث عن مقالتهم لأطلع على مافى كنانتهم ، ثم اتفق أن ورد علىَّ أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم فلم يسعنى مدافعته ، وصار ذلك مستحثًا من خارج الضميمة للباعث الأصلى من الباطن ، فانتدبت لطلب كتبهم وجمع مقالاتهم ، وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة التى ولدتها خواطر أهل العصر لا على المنهاج المعهود من سلفهم ، فجمعت تلك الكلمات ورتبتها ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنه حتى أنكر بعض أهل الحق منى مبالغتى فى تقرير حجتهم ، وقالوا : هذا سعى لهم فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها ، وهذا الإنكار من وجه حق فلقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى تصنيفه فى الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث : الرد على البدعة فرض ، فقال أحمد : نعم حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها ؛ فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر إليه ولا يفهم كنهه ؟

وما ذكره أحمد حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، أما إذا اشتهرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب إلا بعد الحكاية ، نعم ينبغى أن لايتكلف لهم شبهة لم تتكلف ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابى المختلفين إلىَّ ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين فى الرد عليهم ، فإنهم لم يفهموا بعد حجتهم ، ثم ذكر حجتهم ، وحكاها عنهم فلم أرض لنفسى أن يظن بى الغفلة عن أصل حجتهم ، فلذلك أوردتها ، ولا أن يظن بى أنى وإن سمعتها فلم أفهمها فلذلك

قررتها ، والمقصود أنى قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ثم أظهرت فسادها . والحاصل أنه لا حاصل عند هؤلاء ولاطائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة ، ولكن شدة التعصب دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم فى مقدمات كلامهم ، وإلى مجادلتهم فى كل مانطقوا به ، فجادلوهم فى دعواهم الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم ، ودعواهم أنه لايصلح كل معلم بل لابد من معلم معصوم ، وظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم ، وضعف قول المنكرين فى مقابلتهم ، فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذاك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالف له ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى معلم ، وأنه لابد وأن يكون المعلم معصومًا ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا قالوا : هو ميت ، فنقول : ومعلمكم غائب ، فإذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة ، وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبثهم ، وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١).

وبعد كمال التعليم لايضر موت المعلم كما لايضر غيبته . يبقى أنهم يقولون : كيف تحكمون فيما لم تسمعوه أفبالنص ولم تسمعوه أم بالاجتهاد بالرأى ، وهو مظنة الخلاف فنقول : نفعل مافعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن إذ كان يحكم بالنص عند وجوده ، وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى الشرق إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص ، فإن النصوص المتناهية لاتستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات وفات الانتفاع بالرجوع ، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى باجتهاده ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام ليعرفه القبلة لفات وقت

(١) سورة المائدة : من الآية ٣ .

الصلاة ، فإذا جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن ، ويقال : إن المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد ، وللمصيب أجران ، فكذلك فى جميع المجتهدات ، وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير فربما يظنه فقيرًا باجتهاده ، وهو غنى باطنًا بإخفائه ماله ، ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه ، فإن قال : ظن مخالفه كظنه فنقول : هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد فى القبلة يتبع ظن نفسه ، وإن خالفه غيره ، فإن قال : فالمقلد يتبع الشافعى أو أبا حنيفة رضى الله تعالى عنهما أو غيرهما فنقول : والمقلد فى القبلة عند الاشتباه إذا اختلف عليه المجتهدون كيف يصنع ؟ فسيقول : له مع نفسه اجتهاد فى معرفته الأفضل الأعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد فكذلك فى المذاهب ، فرد الخلق إلى الاجتهاد ضرورة الأنبياء والأئمة مع العلم بأنهم قد يخطئون ، بل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر »[1] أى : أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطىء فيه فلا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء مثل هذه المجتهدات ، فكيف يطمع فى ذلك ؟

ولهم هاهنا سؤالان : (أحدهما) قولهم : هذا وإن صح فى المجتهدات فلا يصح فى قواعد العقائد ؛ إذ المخطىء فيها غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟ فنقول : قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم ، وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ، وهى خمسة ذكرتها فى كتاب القسطاس المستقيم ، فإن قال : خصومك يخالفونك فى ذلك الميزان ، فأقول : لايتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ، إذ لا يخالف فيه أهل التعليم لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه أهل المنطق لأنه موافق لما شرطوه فى المنطق غير مخالف له ، ولا يخالف فيه المتكلم ؛ لأنه موافق لما يذكره فى أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق فى الكلاميات ، فإن قال : فإن كان فى يدك مثل هذا الميزان ، فلم لاترفع الخلاف بين الخلق ؟ فأقول : لو أصغوا إلى لرفعت الخلاف بينهم ، وذكرت رفع

---

(١) مفتاح كنوز السنة ٣١٧ .

الخلاف فى كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله ؛ لتعلم أنه حق وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ، ولا يصغون بأجمعهم بل قد أصغى إلى طائفة فرفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد أن يرفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم فلم لم يرفع إلى الآن ، ولم لم يرفع على رضى الله عنه وهو رأس الأئمة ، أو يدعى أنه يقدم على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً فلم لم يحملهم إلى الآن ؟ ولأى يوم أجله وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر لاينتهى إلى سفك الدماء وتخريب البلاد وإيتام الأولاد وقطع الطرق والإغارة على الأموال ، وقد حدث فى العالم من بركات رفعكم الخلاف مالم يكن بمثله عهد ، فإن قال : ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة والاختلافات المتقابلة لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك ، ولك خصوم يخالفونك ، ولافرق بينك وبينهم ، وهذا هو سؤالهم الثانى ؛ فأقول : هذا أولا ينقلب عليك فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك ، فيقول المتحير : بم صرت أولى من مخالفيك ؟ وأكثر أهل العلم يخالفونك ، فليت شعرى بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامى منصوص عليه فمتى يصدقك فى دعوى النص هو ولم يسمع النص من الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وإنما لم يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك ، ثم هب أنه سلم لك النص فإذا كان متحيرًا فى أصل النبوة ؛ فقال : هب أن إمامك يدلى بمعجزة عيسى عليه السلام فيقول الدليل على صدق أنى أحيى أباك وأحياه ، فناطقنى بأنى محق ، فبماذا أعلم أنه صدقه ؟ ولم تعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة مالا يرفع إلا بدقة النظر العقلى ، والنظر العقلى لايوثق به عندك ، ولايعرف دلالة المعجزة على الصدق مالم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة ، ومالم يعرف أن الله لايضل عباده ، وسؤال الإضلال وعسر الجواب عنه مشهور ، فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفيه فيرجع إلى الأدلة النظرية التى تنكرها ، وخصمه يدلى بمثل تلك الأدلة وأوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلابًا عظيمًا ، لواجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جوابًا لم يقدروا عليه ، وإنما نشأ الفساد من

جماعة من الضعفة ناظروهم فلم يشتغلوا بالقلب ، بل بالجواب ، وذلك مما يطول فيه الكلام ، ولا يسبق سريعاً إلى الأفهام فلا يصلح للإفحام ؛ فإن قال قائل : فهذا هو القلب فهل عنه جواب . فأقول : نعم جوابه أن المتحير إن قال : أنا متحير ، ولم يعين المسئلة التى هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول : أنا مريض ، ولايذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه ! فيقال له : ليس فى الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين من صداع أو سعال أو غيرهما ، فكذلك المتحير ينبغى أن يعين ماهو متحير فيه ، فإن عَيَّن المسئلة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة التى لايفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق الذى يوثق بكل مايوزن به ، فيفهم الميزان ، ويفهم أيضاً منه صحة الوزن كما يفهم متعلم علم الحساب نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالمًا بالحساب وصادقًا فيه ، وقد أوضحت ذلك فى كتاب « القسطاس » فى مقدار عشرين ورقة فليتأمل ، وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت ذلك فى كتاب المستظهرى (**أولا**) ، وفى كتاب حجة الحق . (**ثانيًا**) وهو جواب كلام لهم عرض على ببغداد ، وفى كتاب مفصل الخلاف الذى هو اثنا عشر فصلا . (**ثالثًا**) وهو جواب كلام عرض على بهمدان ، وفى كتاب الدرج المرقوم بالجداول . (**رابعاً**) وهو من ركيك كلامهم الذى عرض على بطوس وفى كتاب القسطاس . (**خامسًا**) وهو كتاب مستقل بنفسه ، مقصوده بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام لمن أحاط به ، بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام طال ماجاريناهم فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم المعصوم وأنه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلاً عن القيام بحلها ، فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا : لابد من السفر إليه والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم ، وفى التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئًا أصلاً كالمضمخ بالنجاسة يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله وبقى مضمخًا بالخبائث ، ومنهم من ادعى شيئًا من علمهم ، وكان حاصل ماذكره شيئًا من ركيك فلسفة فيثاغورث ، وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرك من مذاهب الفلاسفة ،

وقد رد عليه أرسطاليس ، بل استرك كلامه واسترذله وهو المحكى فى كتاب إخوان الصفا ، وهو أعلى التحقيق حشو الفلسفة ، فالعجب ممن يتعب طول العمر فى طلب المعلم ، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظن أنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ، فهؤلاء أيضاً جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلهم فى إنكارهم الحاجة الى التعليم بكلام قوى مفحم حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال : هات علمه وأفدنا من تعليمه وقف وقال : الآن إذا سلمت لى هذا ، فاطلبه فإنما غرضى هذا القدر فقط ؛ إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ، ولعجز عن حل أدنى المشكلات ، بل عجز عن فهمه فضلاً عن جوابه فهذه حقيقة حالهم ، فاخبرهم تقلهم ، فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً .

القول فى طريق الصوفية

ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم **قطع** عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ؛ حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكى وكتب الحارث المحاسبى [1] والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت مايمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم بالذوق والحال وتبدل الصفات ، فكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطها وأن يكون صحيحاً وشبعاناً ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، ولا يكون سكران ، بل السكران لايعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شئ ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه شىء من السكر ، والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقينًا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال ، وأن مايمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها ،

---

(١) له ترجمة وافية فى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى جـ ١٣٤/٢ – ١٣٦ .

والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى لابدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لاتدخل تحت الحصر تفاصيلها ، وكان قد ظهر عندى أنه لامطمع لى فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لايتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب عن الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة .

ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ؛ بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يومًا ، وأحل العزم يومًا ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى ، لاتصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليه جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ماأنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فبعد ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضية ، وإياك تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما ألفت إليك نفسك ولا يتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ،

إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يومًا واحدًا تطييبًا لقلوب المختلفين إلى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة ولا أستطيعها ألبتة

ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنًا فى القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لاينساغ لى شربة ولا ينهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم ، ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أورى فى نفسى سفر الشام حذرًا من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم أن لاأعاودها أبدًا فاستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينًيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات فظن من بعد من العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم فى التعليق بى ، والانكباب على ، وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم فيقولون : هذا أمر سماوى ، وليس له سبب إلا عين أصابت اهل الإسلام وزمرة العلم . ففارقت بغداد وفرقت ما كان معى من مال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصًا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين ، فلم أر فى العالم ما لا يأخذه العالم لعياله أصلح منه ، ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريبًا من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس ، وبتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى ، ثم رحلت منها إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى ، ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ادخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على

نفسى ، ثم تحركت فى داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسرت إلى الحجاز ، ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، وآثرت العزلة أيضًا حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو الحال إلا فى أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع الطمع منها فتدفعنى عنها العوائق ، وأعود إليها ، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذى أذكره لينتفع به أنى علمت يقينًا أن الصوفية : هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق [1] بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئًا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة أولها ، وهى أول شرائطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى وهذه آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار ، والكسب من أوائلها ، وهى على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه ، ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول المعبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه

(١) هى الصوفية التى لا بدع فيها ، ولا مخالفة للكتاب والسنة .

الاحتراز عنه ، وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منة طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب المقصد الأقصى ، بل الذى زايلته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئًا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الأولياء هى على التحقيق بدايات الانبياء ، وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب : إن محمدًا عشق ربه . وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها ، فمن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً ، فمن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان ؛ فهم قوم لا يشقى جليسهم ومن لم يرزق صحبتهم فيعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان على ما ذكرناه فى كتاب عجائب القلب من كتاب الإحياء والتحقيق بالبرهان علم وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمانا وهذه ثلاث درجات : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (1) ووراء هؤلاء قوم جهال هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يسمعون ويسخرون ويقولون العجب ، إنهم كيف يهذون وفيهم قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (2) ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (3). ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها ، ولابد من التنبيه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها .

---

(1) المجادلة : من الآية ١١ . (2) محمد : الآية ١٦ .

(3) محمد : من الآية ٢٣ .

القول فى حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان فى أصل الفطرة خلق خاليًا ساذجًا لاخبر معه عن عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى كما قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١)، وإنما خبره عن العوالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم الموجودات ، ونعنى بالعالم أجناس الموجودات . فأول ما يخلق فى الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك فيها أجناسا من الموجودات كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها ، واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً بل هى كالمعدومة فى حق اللمس . ثم يخلق له البصر فيدرك به الألوان والأشكال وهو أوسع عوالم المحسوسات . ثم ينفتح له السمع فيسمع الأصوات والنغمات ، ثم يخلق له الذوق كذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه امورًا زائدة على عالم المحسوسات ، لا يوجد منها شيء فى عالم الحس ، ثم يترقى إلى طور اخر ، فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأموراً لا توجد فى الأطوار التي قبله ، ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب ، وما سيكون من المستقبل ، وأموراً أخر العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز ، وكما أن المميز لو عرض عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها ، وذلك عين الجهل إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه ، فيظن أنه غير موجود في نفسه ، والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال وحكي له ذلك ابتداء لم يعلمها ولم يقر بها ، وقد قرب

(١) المدثر : من الاية ٣١ .

الله تعالى ذلك على خلقه أن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهي النوم ، إذ النائم يدرك ماسيكون من الغيب إما صريحاً وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيًّا عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فلأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق . وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة ، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي تحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات الحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه لها نور يظهر في نورها الغيب وأمور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة إما أن يقع في إمكانها ، أو في وجودها ووقوعها ، أو في حصولها لشخص معين . ودليل إمكانها وجودها ودليل وجودها معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل : كعلم الطب والنجوم ؛ فإن من بحث عنهما علم بالضرورة أنهما لا يدركان إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى ولا سبيل إليهما بالتجربة . فمن الأحكام النجومية ما لايقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الأدوية (فتبين) بهذا البرهان أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل أحد خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها وماذكرناه قطرة من بحرها ، وإنما ذكرناها لأن معك أنموذجاً منها ، وهو مدركاتك فى النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم ، وهي معجزات الأنبياء ، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً .

(أما) ماعدا هذا من خواص النبوة فإنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف ؛ لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به ، فإن كان للنبي خاصية ليس لك منها أنموذج فلا تفهمها أصلاً ، فكيف تصدق بها وإنما التصديق بعد التفهم ؟ وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لايحصل بالقياس إليه ، فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة ؛ فإن وقع لك الشك في شخص

معين أنه نبي أم لا فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم ، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون الشافعي رحمه الله تعالى فقيهًا ، وكون جالينوس طبيبًا معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير بأن تتعلم شيئا من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ؛ فيحصل لك علم ضروري بحالهما ، فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثر النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة ، واعضد ذلك بتجربة ماقاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب وكيف صدق في قوله : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » * وكيف صدق في قوله : « من أعان ظالمًا سلطه الله عليه » ** وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة » *** فإذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه ، فمن ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعبانًا وشق القمر ؛ فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل وأنه من الله إضلال فإنه ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾(١) ، وترد عليك مسألة المعجزات ، فإن كان مستند إيمانك كلاماً منظومًا في وجه دلالة المعجزة فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكال والشبهة عليها ، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدري ولا يخرج عن جملة ذلك ولا يتعين للآحاد ، فهذا هو الإيمان القوي العلمى ، وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ولا يوجد إلا في طريق التصوف . فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف في الغرض الذي أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

---

*ورد فى سنن ابن ماجه .

**ورد فى صحيح مسلم والبخارى

***ورد فى صحيح مسلم والبخارى .

(١) المدثر : من الآية ٣١ .

القول في نشر العلم بعد الإعراض عنه

ثم إني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها مرة بالذوق ومرة بالعلم البرهاني ومرة بالقبول الإيماني أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ، ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة ولا ينجو ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [1] وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي كما قال تعالى : ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [2] وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية الله بمتابعة الهوى داؤه الممرض ، وان معرفة الله تعالى ترياقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي ، وأنه لا سبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا أدوية ، كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك ، وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل ، وكما أن الأدوية تركبت من النوع والمقدار ، فبعضها ضعف بعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف العصر في المقدار ، فلا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بنور النبوة .

(١) الشعراء : الآية ٨٩ .

(٢) الحج : من الآية ٥٣ .

فقد تحامق وتجاهل جدًّا من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهي فيها يقتضيها بطريق الخاصية ، وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها وزوائد هي متمماتها لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين ، وإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهيم ما يلقيه الطبيب إليه . فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة في مدة الخلوة والعزلة ، ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت في أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم فإذا هي أربعة : سبب من الخائضين في علم الفلسفة . وسبب من الخائضين في طرق التصوف . وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم . وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس ؛ فإني تتبعت مدة آحاد الخلق أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ، وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له : مالك تقصر فيها ، فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة ، فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع مالا نهاية له بأيام معدودة ، وإن كنت لا تؤمن به فأنت كافر ، فدبر نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ماسبب كفرك الخفي ، الذي هو مذهبك باطنًا ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به تجملاً بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع ، فقائل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك ، فلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ، ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جرا إلى أمثاله ، وقائل ثان يدعى علم التصوف ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة ، وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة ، وهؤلاء هم الذين ضلوا عن طريق التصوف ، وقائل رابع لقي أهل التعليم

فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه منسد ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من البعض ، وأدلة العقول متعارضة فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي إلى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع يقين بالشك ؟ وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ولكني قرأت علم الفسفة وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة ، وأنا بصير بها مستعن فيها عن التقليد ، هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلّهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي ، وهؤلاء هم المتجملون منهم بالإسلام ، وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر وأنواعاً من الفسق والفجور ، وإذا قيل له : إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلي فربما يقول رياضة الجسد وعادة أهل البلد وحفظ المال والولد ، وربما قال : الشريعة صحيحة والنبوة حق ، فيقال : فلم تشرب الخمر ؟ فيقول : إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء وأنا بحكمتي محترز عن ذلك ، وإنما أقصد به تشحيذ خاطري حتى إن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية والبدنية ، ولا يشرب الخمر تلهيًا بل تداوياً وتشافياً ، فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشفي ، فهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضروري لهم على ما نبهنا عليه من قبل .

(فلما) رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب ، ورأيت نفسي ملية بكشف هذه الشبهة حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء لكثرة خوضي في علومهم ، أعني الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمترسمين من العلماء ، انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة وقد عم الداء ومرض الأطباء وأشرف الخلق على الهلاك ثم قلت في نفسي :

ومتى تستقبل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق لعاداك أهل الزمان بأجمعهم وأنى تقاومهم وكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد وسلطان متدين قاهر فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة ، فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة وبلغ الإلزام حدًّا كان ينتهي لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة ، فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك بعسر مقاساة الخلق والله تعالى يقول : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [(1)]. ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه : ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [(2)]. ويقول عز وجل : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [(3)]. إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ [(4)]. فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة . وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة . وهذه حركة قدرها الله تعالى وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن

(١) العنكبوت : الآيات ١ ـــ ٣ .
(٢) الأنعام : الآية ٣٤ .
(٣) يس : الآيتان ١ ـــ ٢ .
(٤) يس : من الآية ١١ .

الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما يخطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال ، وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت ؛ فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي (وأما) الآن فأعود إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني ، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ولست أدري أأصل إلى مرادي ، أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأني لم أتحرك لكنه حركني ، وأني لم أعمل لكنه استعملني فأسأله أن يصلحني أولاً ثم يصلح بي ويهديني ثم يهدي بي وأن يريني الحق حقًّا ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه . ونعود الآن إلى ماذكرناه من أسباب ضعف الإيمان فيمن ذكر بذكر طريق إرشادهم من مهالكهم .

(أما) الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم فعلاجه ماذكرناه في كتاب القسطاس المستقيم ، ولا نطول بذكره في هذه الرسالة .

(وأما) ما توهمه أهل الإباحة فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في كتاب كيمياء السعادة ، (وأما) من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرهما ، وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك ، وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم لأنه من نفس علمهم ، ونحن نبين لكل عالم بفن من العلم كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً من نفس علمه برهان النبوة (وأما) من أثبت النبوة بلسانه ، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص ، يقتضي طالعه أن يكون متبوعاً ، وليس هذا من النبوة في شيء ، بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، العقل معزول عنها كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات ، وإن لم يجز هذا فقد أقمت البرهان على إمكانه ، بل على وجوده فإن

جوز هذا فقد أثبت أن ههنا أمورًا تسمى خواصًا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها ، فإن وزن دانق من الأفيون سم قاتل ؛ لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته ، والذي يدعي علم الطبيعة يزعم أن ما يبرد من المركبات إنما يبرد بعنصري الماء والتراب فهما العنصران الباردان ، ومعلوم أن أرطالاً من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهما في الباطن إلى هذا الحد ، فلو أخبر طبيعي بهذا ولم يجربه لقال هذا محال ، والدليل على استحالته أن فيه نارية وهوائية والهوائية والنارية لا تزيده برودة فنقدر الكل ماء وترابًا فلا يوجب هذا الإفراط فى التبريد ، فإن انضم إليه حاران فبأن لا يوجب أولى ، ونقدر هذا برهاناً ، وأكثر براهين الفلاسفة والطبيعيات والإلهيات مبني على هذا الجنس ؛ فإنهم تصوروا الأمور على قدر ماوجدوه وعقلوه ، ومالم يألفوه قدروا استحالته ، ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة وادعى مدع أنه عند ركود الحواس يعلم الغيب لأنكره المتصرفون بمثل هذه العقول ، ولو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو مقدار حبة يوضع في بلدة فيأكل تلك البلدة بجملتها ، ثم يأكل نفسه فلا يبقى شيء من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو في نفسه لقال : هذا محال ، وهو من جملة الخرافات ، وهذه حالة النار ، وينكرها من لم ير النار إذا سمعها ، وأكثر عجائب الآخرة هو من هذا القبيل ، فنقول للطبيعي : قد اضطررت إلى أن تقول في الأفيون خاصية في التبريد ليس على المعقول بالطبيعة ، فلم لا يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص في مداواة القلوب وتصفيتها مالا يدرك بالحكمة العقلية ؟ بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة ، بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل ، يكتب على خرقتين لم يصبهما الماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينها ، وتضعهما تحت

قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج ، وقد أقروا بإمكان ذلك ، وأوردوه في كتاب عجائب الخواص ، وهو شكل فيه تسعة بيوت يرقم فيها رقوم مخصوصة يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر قراءته في طول الشكل أو فى عرضه أو على التأريب ، فياليت شعري من يصدق بذلك ، ثم لم يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين والظهر بأربع والمغرب بثلاث هي لخواص غير معقولة بنظر الحكمة ، وسببها اختلاف هذه الأوقات ، وربما تدرك هذه الخواص بنور النبوة .

والعجب أنا لو غيرنا العبارة على عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الأوقات فنقول : أليس يختلف الحكم في الطالع بأن تكون الشمس في وسط السماء أو في الطالع أو في الغارب حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف الهيلاج وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس فى الغارب ، فهل لتصديقه سبيل إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم لعله جرب كذبه مائة مرة ، ولا يزال يعاود تصديقه حتى لو قال المنجم : إذا كانت الشمس في وسط السماء ، ونظر إليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ، فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم قد عرف كذبه مرات . فليت شعري من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ، ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص معرفتها معجزة بعض الأنبياء ، كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ؟ لم يعرف قط بالكذب ؟ وإذا نظر في إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ورمي الجمار وعدد أركان الحج وسائر تعبدات الشرع لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقا أصلاً (فإن قال) : قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب فوجدت بعضه صادقاً فانقدح في نفسي تصديقه ، وسقط من قلبي استبعاده ونفرته ، وهذا لم أجربه فبم أعلم وجوده وتحققه وإن أقررت بإمكانه ؟ (فأقول) : إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأولياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك ، على أني أقول : وإن

لم تجربه فيقضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً ، فإنا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب المرض فمرض وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء فقال : هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك فماذا يقتضيه عقله وإن كان الدواء مرًّاكريه المذاق أيتناول أو يكذب ويقول : أنا أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم أجربه فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك ، وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك (فإن قلت) : فبم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفته بهذا الطب ؟ (فأقول) : وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمراً محسوساً ، لكن عرفته بقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لا تتمارى فيه ، ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام وماورد من الأخبار فى اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه في حق الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما يصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده ، وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر على يديه من الأفعال وإلى عجائب الغيب التي أخبر بها في القرآن على لسانه ، وفي الأخبار إلى ما ذكره في آخر الزمان ، وظهور ذلك كما ذكره ، علم علماً ضروريًّا أنه بلغ الطور الذي وراء العقل وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التي لا يدركها العقل (فهذا) هو منهاج تحصيل العلم الضروري بصدق النبى عليه الصلاة والسلام ، فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعيان ، وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان .

(وأما) السبب الرابع وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء فتداوي هذا المرض بثلاثة أمور :

(أحدها)، أن تقول له : إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر والربا بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة ، وأنت تعرف ذلك وتفعله لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ، فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ،

ولا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين ، وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة ، وعن الماء البارد وإن زجره الطبيب عنه ، ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح فهذا محمل هفوة العلماء .

(الثانى) أن يقال للعامي : ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه فى الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله لفضيلة علمه ، وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة ، وهو ممكن ، فهو وإن ترك العمل يدلي بالعلم (أما) أنت أيها العامي إذا نظرت إليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل فتهلك بسوء عملك ، ولا شفيع لك .

(الثالث) وهو الحقيقة أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصرًّا على المعاصي أصلاً ، إذ العلم الحقيقي ما يعرّف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا ، ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو أدنى . وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس ، فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى ، (وأما) العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات . وذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالمؤمن مفتن تواب . وهو بعيد عن الإصرار والإكباب .

فهذا ماأردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما إلا بطريقه . ونسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه . وأرشده إلى الحق وهداه . وألهمه ذكره حتى لا ينساه . وعصمه من شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه . واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

الكشـــاف العـــام

(١) الأعـــلام

(٢) الطوائف والأجناس

(٣) الأماكن الجغرافية

(٤) الكتب الواردة في النص

(٥) الآيـــات والأحاديـــث

(أ) الآيـــات

(ب) الأحاديـــث

مصـــادر ومراجـــع التحقيـــق

١ - الأســـانيد

١ - القـــرآن الكريـــم

٢ - الجامـــع الصغـــير للســـيوطى

٣ - ســـنن الترمـــذى

٤ – سنن الدارقطني
٥ – سنن أبو داود
٦ – سنن ابن ماجه
٧ – سنن النسائي
٨ – صحيح البخاري
٩ – صحيح مسلم
١٠ – معجم ألفاظ الأحاديث
١١ – معجم ألفاظ القرآن الكريم

٢ – المصادر والمراجع

١ – أسد الغابة في معرفة الصحابة	لابن الأثير – دار الشعب – القاهرة ١٩٧٠ م – ١٩٧٤ م .
٢ – الإصابة في تمييز الصحابة	لابن حجر العسقلاني – تحقيق على محمد البجاوي – نهضة مصر – القاهرة ١٩٧٨ م .
٣ – الأنساب	للسمعاني – نشره مصوراً مرجليوث – ليدن/لندن ١٩١٢ م .
٤ – البداية والنهاية	لابن كثير – القاهرة ١٣٤٨ هـ .
٥ – تاج التراجم	لابن قطلوبغا – بغداد ١٩٦٢ م .
٦ – تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي – الخانجي ١٣٤٩هـ
٧ – تبصير المنتبه	لابن حجر العسقلاني – تحقيق على محمد البجاوي – الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة ١٩٦٦ م .
٨ – تذكرة الحفاظ	للذهبي – تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي – حيدر آباد الهند ١٣٧٤ هـ .

٩ – تهذيـــب التهذيـــب — لابن حجر العسقلاني – حيدر آباد الهند ١٣٤٤ هـ .

١٠ – جمهـرة أنسـاب العـرب — لابن حزم الأندلسي – تحقيق عبد السلام هارون – دار المعارف – القاهرة ١٩٧٥ م .

١١ – حليـة الأوليـاء — لأبي نعيم الأصبهاني – مطبعة السعادة – القاهرة ١٣٥١ هـ .

١٢ – الرســالة المســتطرفة — للكتاني – دمشق ١٩٦٤ م .

١٣ – ضحـــى الإســلام — أحمد أمين – القاهرة ١٩٦٤ م .

١٤ – ظهـــر الإســلام — أحمد أمين – القاهرة ١٩٦٤ م .

١٥ – العـــبر — الذهبي – تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد – الكويت ١٩٦٠ م .

١٦ – الفهرســت — لابـــن النديـــم

١٧ – الكامــل فــي التاريـــخ — لابـــن الأثير – دار صادر – بيروت ١٩٦٥ م .

١٨ – اللباب في تهذيب الأنساب — لابن الأثير – نشره القــدسي – القاهـــرة ١٣٥٧ هـ .

١٩ – لســان المــيزان — لابن حجر العسقلاني – حيدر آباد الدكن الهند ١٣٣١ هـ .

٢٠ – مــرآة الجنــان — اليافعي – حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٨ هـ .

٢١ – معجــم البلــدان — لياقوت الحموي – باعتناء وستنفلد طهران ١٩٦٥ م .

٢٢ – مــيزان الاعتــدال — للذهبي – تحقيق على محمد البجاوي – الحلبي القاهرة ١٩٦٣ م .

٢٣ - نكـــت الهميـــان للصفدي - تحقيق أحمد زكي - مصر ١٩١١ م .
٢٤ - الوافـــي بالوفيـــات للصفدي - إستانبول ١٩٣١ م .
٢٥ - وفيـــات الأعيـــان لابن خلكان - دار صادر - بيروت ١٩٨٢ م .

فهـــرس الموضـــوعات